وكانت ريبته تزداد ايضاً . وتملكه في موسكو جنون من الارهاب لم يكن يستطيع للتخلص منه إلا ان يقوم بعمل عنيف . وخيل إليه انه سمع ناقوس موته في الكريملين . ثم بدد كل أمل في إزالة مخاوفه شهاب ساطع عبر السماء فتملكه قلق سوداوي لانه لم يكن ثمة شخص يؤمن بالنجوم اكثر منه . ولم يكن بيته الجديد في موسكوعلى الرغم من حصانته وحسن حراسته يكفي لاعطائه الشعور بالأمان ، فخلف كل جدار في العاصمة كان يتربص قاتل . هذا على الأقل ما كان يعتقده ومن العجيب ان احدا لم يفكر قط باغتياله ، ذلك لأن الروس كانوا قرويين بطبعهم وكانوا ابدا عاجزين بشكل يستدر الشفقة عن قتل أولئك الذين يكيلون لهم الاضطهاد والعذاب . لقد كان إيفان المحارب القاسي الشديد في أمان اكبر مما يتمتع به حاكم مثالي ، ذلك لأن الروس اعتادوا على أن يحكمهم طاغية ظالم .

من ملامح إيفان الطبيعية البارزة انه كان جريئا وفي الوقت نفسه ينتابه ذعر شديد . وبما انه كان جبانا فقد كان يسير على اطراف اصابعه متخفيا في ارجاء القصر . ولكنه ما ان يكون على راس جيشه أو راس الأوپريتشينا التي أنشاها حتى يصبح قادرا على الهجوم وقتل الآلاف من الأعداء . وتظهر التدابير التي اتخذها في مجال السياسة وخلقه للأوبريتشينا انه كان يتمتع بعقل جريء . أما ماذا كان يشغل فكره في الكسندروف عندما انتزع شعره ولحيته في جماع كفه فلا أحد يدري . ويمكننا ان نتمثله ميدانا لمعركة بين الخير والشر على ان يكون الشر منتصرا والخير مسحوقا حتى العظام . وفي موسكو لم يشأ ان ينام الى جانب رفات اجداده المحترمين لأن نفسه كانت قد اصبحت دنسة فأقام بيته في وسط المدينة دون ان يجد الراحة هناك ايضا ، وهكذا كان لا بد له من الرجوع الى ميدان المعركة في الكسندروف حيث كانت نفسه قد ضاعت عساه ان يجدها هناك .

وكان قد وضع في كنيسة ام الله في الكسندروف صليبا فوق كل قرميدة فيها وزين الهياكل بالذهب والأحجار الكريمة وحفر حول بيته